من وجوه البيان في القرآن الكريم

د. حميد الله *

وجوه البيان في القرآن أعلى ما عرفه الإنسان في لغة و أرقى ما نظر فيه من أساليب ، و مفردات ، و تراكيب . ويكون هذا البيان في تصويره للحقيقة، وفى حديثه عن المواقع والحقائق ولذلك فالبيان صنو الحقيقة ، وأساليب الحقيقة بيان و تأثير.

ومن هذا ما جاء في معاني المفردات ، وفي تفسير العبارات ، والحكاية عن أقوام غابرين ، وعظات لمن يعتبر ، و أمثال للقريب والبعيد ، وغير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى.

فالدراسات اللغوية والنحوية التي عرضت للقرآن الكريم في تفسير مفرداته ، ومشكله وغريبه ، وتأويل ذلك من الوجهة اللغوية أو النحوية ، أو التوجيه إلى طرائق العرب في ذلك. قد خدمت القرآن في بيانه من الناحية الحقيقية، في المعاني والتراكيب و التفسير.

ومن ذلك كتاب "مجاز القرآن"(١) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٦هـ) الذي أطلق لفظ المجاز ، وأراد به ومعناه الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي ، وهو المعبر والممر والطريق ، فكأنه معنى "مجاز القرآن" طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية ، يستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة ، أو

---

* الأستاذ المساعد ، قسم العلوم الإسلامية ، جامعة بنجاب ، لاهور.

بالمرادف المفسر من المفردات وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها ، أو طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين(٢).

ومنه كذلك ، ما كتبه ابن قتيبة عبدا لله بن مسلم (٢٧٦هـ) في تأويل مشكل القرآن وفي غريبه (٣). فإن رجلا مثل ابن قتيبة لا ينهج نهج المفسرين الذين يتابعون بين آي القرآن ، و يشرحون ما يعرض فيها من معنى لفظ ، أو بيان عظة ، أو سرد خبر ، وإنما يعرض ابن قتيبة لما خفى عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ ، وظاهر دلالته على معناه.

ولذلك فإن كلام المخلوقين تتميز فيه البلاغة من العيّ ، والفصاحة من اللكن ، وأما كلام الخالق تبارك وتعالى فعقول البلغاء تعجز عن تدبر بلاغته ، و تحار في اطّراد فصاحته ، فماذا يورد المورد منه ؟ وبماذا يترجم منه؟ (٤).

وقد تحدى ا لله سبحانه به خلقه أجمعين ، فقال ـ وهو أصدق القائلين ـ في سورة يونس﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون ا لله ولكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العلمين ، أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون ا لله إن كنتم صادقين﴾(٥).

ومثل ابن قتيبة يضع نفسه هذا الوضع ، ويعرضها للمعاندين والطاعنين، الذين يدلون بما وسعتهم الحجة في الأداء به ، لا بد أن يكون على حظ من المعرفة بالعرب ولغاتها وفنون العبارة عن المعاني بها ، وقد توافر لا بن قتيبة من ذلك حظ عظيم ، وما من آية فيها شبهة ، أو عبارة فيها خفاء ، إلا اوردلها نظائر وأمثالا من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء المشهود لهم بالتمكن من صناعتهم وطول الباع في المنظوم والمنثور ، وبرهن على أن هذا الفن ليس خارجا من مألوف الفن الأدبي وليس غريبا على المبرزين من فحول البيان (٦).

هذه الدراسات التي اهتمت بالقرآن الكريم ، من وجهة نظر اللغويين والنحاة (٧) كانت مقدمات لباب أوسع في البيان العربي، ولطرائق أكثر في الإستخدام والشرح والتوضيح.

وإذا كان "البيان" علما من علوم العربية ، فهو كذلك معدود من جملة العلوم الإسلامية ، وهي العلوم التي نشأت بتأثير هذا الدين الجديد ، وكان له دخل واضح في نشأتهاو تطورها و تنوع مباحثها ، وكان البيان من أهم ما اعتمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية ، لأنه يعمل على إبراز ما في القرآن الكريم وهو كتاب العقيدة الإسلامية، وآيتها المعجزة من وجوه الجمال التي يمتاز بها ويبين سر الإعجاز الذي بان به كلام الله و امتاز به من كلام البشر ، سواء من ناحية مقاصده ومعانيه ، أو من ناحية أساليب تأديتها والعبارة عنها(٨).

ولهذا فإن أحق العلوم بالمتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة و معرفة الفصاحة ، الذي يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشد ، والمدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق و أقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجة الشك بيقينها(٩).

ولذلك فقد قرر العلماء أن علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا ، وأدقها سرا ، وربطوا هذا الفهم ، بأن علم البلاغة تعرف به دقائق العربية وأسرارها ، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها (١٠).

وبهذه الفكرة الرئيسة فهم المحدثون البحث البلاغي عند العرب ، إذالبلاغة من العلوم العربية التي تنضج و لم تحترق -- كما يقول القدماء -- فباب الإجتهاد فيها قائم ، وسبيل الرجوع إليها متصل ما دامت العربية خالدة ، وما دام أسلوبها زاد المنشئين وقد نشأت لتصون التراث وتضع المعالم على الطريق ، وكانت قضية الإعجاز أهم ما شغل به الدارسون ،

وكانت القدرة البيانية أنبل ما سعى إليه الشعراء والكتاب حين ازدهر الأدب وبنى العرب حضارتهم التي عمت الآفاق(١١).

ولذا فإن النتيجة حول ما تقدم في أن البلاغة أو فنّ القول ليست من الموضوعات التي ينبغي أن تذوب في دراسات أخرى، لأنها عمدة الأديب البليغ، ومفتاح فهم أعجاز كتاب الله و إدراكه ، ولا يصح إبعادها عن القرآن الكريم ، أو الغرض الديني ، كما تفعل أقوام أخرى ثارت على الدين وتركت كتب السماء وراءها ظهريا (١٢).

وفي إطار هذا الفهم دارت دراسات المحدثين من المشتغلين بالبلاغة العربية وذلك لأن البلاغة العربية من علوم اللغة العربية ، وقد كانت السبيل المفضي إلى فهم كتاب الله و كلام العرب ، ولذلك أولى القدماء هذا الفن عناية كبيرة و وضعوا فيه دراسات كثيرة اتسمت بالأصالة والمنهج السديد(١٣).

شاع بعض كتب الأمالي ، المعاني الحقيقة ، و طرائق العرب في التفسير اللغوي لمفردات القرآن الكريم (١٤)، ومن ذلك ما أورده أبو اسماعيل بن القاسم البغدادي ، من قول الله تعالى: في قراءة أبي عمرو بن العلاء:" ما ننسخ من آية أو ننسها" والمطلب في الكلام من هذه الآية على مادة" نسأ" وذلك على معنى تأخرها(١٥).

يكفي هذا النمط من اللغة العربية ، والبيان العربي ، في موطن الإستخدام والتوضيح ، و مناحي الإستخدام في العربية ، مرتبطة بهواتف النفس، وحاجات الناس ، و نوازع الأفراد ، و ميول الجماعة ،و كل هذا يناط بقيمة التواصل بين المنشئ والملتقى.

ويفسر ذلك ، ما قاله معاوية بن أبي سفيان للناس ، وهو كيف ابن زياد فيكم؟ قالوا ظريف على أنه يلحن ، قال فذالك أظرف له ، ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة و ذهبوا هم إلى اللحن الذي هو الخطأ(١٦).

و تتنوع طرائق البيان و وجوهه ، حسب الزمان والمكان ، والبيئة، والموروث الثقافي والمستوى الحضاري ، ولذا كان التوضيح في حديث الرسول الكريم ، في القرن الرابع الهجري بما يفهمه القوم – آنذاك – ولذلك أورد ابوبكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ) قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" الشديد من غلب نفسه "يقول:

من ملك نفسه عند شهوته ، و عند غضبه ، فمنعها فهو الشديد وهذا شبيه بحديثه عليه السلام ، أنه مر بقوم يربعون حجرا ، أو يجذبون حجرا ، فسأل عن ذلك ، فقيل: لينظروا أيهم أقوى ، أو كما قيل ، فقال: ألا أخبركم بأشد من هؤلاء ؟ من ملك نفسه عندالغضب ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم (١٧).

وما نقدمه من طرائق البيان ، هو وجه من وجوه الوصول إلى فهم الإعجاز القرآني ، ووسيلة من وسائل العلم التي بها يتحقق الكشف عن جماليات القرآن الكريم ، فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم.

لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود ، وعلم مفقود ، فانكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب المفقود(١٨).

ولهذا فإن معاني البشر ، مرقاة للوصول إلى فهم معاني القرآن ، ومن وصف الله بمعنى عن معاني البشر ، فقد كفر(١٩).

ومن أراد أن يعرض جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز والإختصار ، و يحيط ببلاغة الإيماء ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام فمن ذلك قوله عز ذكره :" إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" استقاموا ، كلمة واحدة تفصح عن الطاعات

كلها في الإئتمار والإنزجار ، ذلك لو أن إنسانا أطاع الله سبحانه مائة سنة ثم سرق حبة واحدة، لخرج بسرقتها عن حد الإستقامة (٢٠).

ولذلك فقد جاء تكرار الأنباء في القرآن الكريم ، لأن الله تبارك و تعالى أنزل القرآن نجوما في ثلاث و عشرين سنة ، بفرض بعد فرض . تيسيرا منه على العباد ، و تدريجا لهم إلى كمال دينه ، ووعظ بعد وعظ ، تنبيها لهم من سنة الغفلة ، و شحذا لقلوبهم بتجدد الموعظة ، وناسخ بعد منسوخ: استبعادالهم و اختيارالبصائرهم يقول الله تعالى: " وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا" الفرقان(٢١).

الخطاب للنبي ، صلى الله عليه وسلم ة والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم ، أي يتعهدهم بها عند الغفلة و دثور القلوب(٢٢).

و تنوع وجوه البيان في القرآن الكريم ، لأنها لا تنقضي عجائبه ، و مفيد لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أوتيت جوامع الكلم"(٢٣).

ومن هنا كانت الآيات القرآنية من خلال التفسير البياني تعتمد التوجيه النحوي ، أحيانا ، أو طريقة الكشف عن المعنى المفرد ، لما ذلك من إيجاز ، وفطنة ، ومن ذلك ما جاء في سورة إبراهيم ، من قوله تعالى:" وذكرهم بأيام الله" بأيام النعم ، وقوله تعالى:" واستفتحوا " أي استنصروا (٢٤).

ومنه أيضا : قوله تعالى: " فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا" أي:عملا يرجع إليه (٢٥) و قوله تعالى " في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه" أي الذراع: العضو المعروف، ويقال ذراع من الثوب والأرض (٢٦) وقوله تعالى" أفنضرب عنكم الذكر صفحا" معنى " أفنضرب أفنصفح ومنهم من يقدر له فعلا من لفظه ، فكأنه قال: أفنفصح عنكم صفحا(٢٧).

وقوله تعالى " أيمسكه على هون" قالهون: والهوان ، الرفق (٢٨) ومن هذا دلالة قوله تعالى" ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار" . يدل على أن الظالم لا تلحقه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يتخلص من النار إذا مات على ظلمه و اصراره (٢٩) و قوله تعالى" والذين هم لفروجهم حافظون إلا على ازواجهم(٣٠) وقوله تعالى "فصرهن" أئ ضمهن وقيل املهن في الصور ، جمع صورة (٣١).

و مع هذا فنرى عن وجوه البيان ما يزيد في التوضيح على ما تقدم ومنه ما يسمى بالإكتفاء وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكفى بأحدهما عن الآخر لنكتة ، و يختص غالبا بالإرتباط العطفي كقوله تعالى " سرابيل تقيكم الحر" أي: والبرد وخصص الحر بالذكر لأن الخطاب لعرب و بلادهم حارة والوقاية عندهم من الحر أهم عندهم ، لأنه أشد من البرد، وقيل لأن البرد تقدم ذكر الإمتنان بوقايته صريحا في قوله تعالى:" ومن أصوافها و أوبارها و أشعارها أثاثا " وفي قوله تعالى " وجعل لكم من الجبال أكنانا" (٣٢).

و بالله التوفيق – وصلى الله على النبي وآله وسلم ....

****

الهوامش

١- تحقيق و تعليق. محمد فؤاد سزكين ، ط٢، ١٩٧٠م ، مكتبة الخانجي ، و دار الفكر ، القاهرة.

٢- البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها و مصادرها الكبري، ص٢٩ ، بدوي طبان ، ص٨، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

٣- البيان العربي ، ص ٣١

٤- لباب الآداب ، أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) ص ٣٢٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٥- يونس ، ٣٧،٣٨

٦- البيان العربي ، ٣٤-٣٥

٧- أنظر تفصيل هذا الوجه في كتاب: أثر النحاة في البحث البلاغي ، د. عبدالقادر حسين دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٨- البيان العربي ، ص ٢٠

٩- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، الحسن بن عبدالله العسكري (٣٩٥هـ) ص٧، تحقيق على محمد البجاوي و أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابي ، القاهرة.

١٠- التلخيص ، محمد عبدالرحمن القزويني (٧٢٩هـ) بيروت ، ١٩٠٤م.

١١- البحث البلاغي عند العرب ، د. أحمد مطلوب ، ص ٢، بغداد، ١٩٨٢م.

١٢- السابق ، ٨٣، ٨٤

١٣- البلاغة والتطبيق ، د. احمد مطلوب ، ص٣ ، وزارة التعليم العالي، بغداد ١٩٨٣م.

١٤- تأويل مشكل القرآن ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢٨٦هـ) ، بيروت ، ١٩٨١م و تفسير غريب القرآن ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢٨٦هـ)

بيروت ، ١٩٧٨م ، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ، أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)، ١٩٧٧م ، والبيان في إعراب القرآن ، عبدالله بن الحسين العكبرى (٦١٦هـ) القاهرة ، ١٩٧٦م ، مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) غريبي القرآن و الحديث ، أحمد بن محمد الهروي (٤٠١هـ) القاهرة ، ١٩٧٠م متشابة القرآن ، القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥هـ) كتاب أعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه ، إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد (٢٨٠هـ).

١٥- كتاب الأمالي ، اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (٣٥٦هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت.

١٦- السابق.

١٧- المجتنى ، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ) ص ٢٦، دمشق ، ١٩٧٩م.

١٨- العقيدة الطحاوية لمحمد بن علاء الدين الدمشقي (٧٩٢هـ) ص ٣٨، شرح و تعليق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ، دمشق ١٩٧٨م.

١٩- السابق ، ص٣٤

٢٠- نفسه ، ص٢٥

٢١- الإعجاز ، أبو منصور الثعالبي، ص ١٠ ، بيروت.

٢٢- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، ص٢٣١

٢٣- السابق ، ص ٤٣

٢٤- تفسير غريب القرآن ، ابن قتيبة ، ص ٢٣١

٢٥- كتاب الغريبين ، الهروي ، ص١٠٦

٢٦- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الإصفهاني ، ص٢٥٨

٢٧- البيان في اعراب القرآن ، ابن الأنباري ، ٢:٣٥٢

٢٨- اعراب القرآن ، النحاس ، ئص٥
٢٩- أعراب ثلاثين سورة من القرآن ، ابن خالوية ، ص٨٠
٣٠- متشابه القرآن ، القاضي عبدالجبار ، ص١٧٧
٣١- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ، ص١٦٠
٣٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي(٩١١هـ) ١/٣٢٠، القاهرة، ١٩٦٩م.

****